نسبه ومولده

الرافعى سورى الأصل ، مصرى المولد ، إسلامى الوطن : فأسرته من (طرابلس الشام) يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بنى عمه وخئولته منذ أكثر من قرن ؛ وهو فى وطنيته (مسلم) : لا يعرف له أرضاً من أرض الاسلام ينتسب إليها حين يقول : وطنى . فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية ... » أو « الوطنية السورية ... » أو « الوطنية العراقية ... » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه دارى من هذا البلد ، أو هذه مدينتى من هذا الوطن الكبير الذى يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم ، هو كل أرض يخفق فيها لواء الاسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الاسلامى الأكبر ، ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد

وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعى وبعض الأدباء فى مصر ، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه فى وطنيته ، أعنى مصريته ؛ وكان الرافعى يستمع إلى ما يقولون عنه فى ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ، ثم يقول : أفتراهم يتهمونني في مصريتي لأننى فى زعمهم غير مصرى وفى مصر مولدى وفى أرضها رفات أبى وأمى وجدى ، أم كل عيبى عندهم فى الوطنية أننى صريح النسب ؟ ... وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟ ومن أين مقدمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه ، فى نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه فى الدين .

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، قدمها فى سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية فى مصر بأمر من السلطان ؛ وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الامام أبى حنيفة فى القضاء الشرعى بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس فى مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة[1] ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبى حنيفة ، حتى آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم فى وقت ما أربعون قاضياً فى مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها فى بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الانجليزية .

وقد تخرج فى درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعي ، أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب فى مصر . ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوى الكبير والشيخ محمد بخيت مفتى الدولة السابق .

ولما توفى المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنيفة فى مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي ، فدعاه الخديو عباس إلى تولى وظيفة الإفتاء ،

---

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس فى مصر أحد من ولده ، ومع ذلك تستطيع أن تحصى من آل الرافعي في مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعي كثيرة الولد ، فما منهم إلا له ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ؛ وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعي (والد المترجم) يبلغون الآن واحدا وسبعين ولدا وبنتا ، وقد مات المترجم وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولد له منها أحد عشر ولدا وفتاة ، افترط منهم واحدة فى سنتها الأولى وخلف عشرة

وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرج وخشية ، فلم يجد فى نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى فى شأن يتصل بحقوق العباد ، وفيه الفصل فى الخصومات بين الناس . . . فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفى نفسه هم ، وهو يدعو الله ألا يئول إليه هذا الأمر ضناً بدينه ومروءته ... وتمت مراسيم التولية وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتى الدولة) ثم نزل إلى عربته فركبها عائداً إلى داره وهو يتمتم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الحوذى ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فاذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضى فى شئون العباد ... واستجاب الله دعاءه ... !

وأبو الأستاذ الرافعى هو المرحوم الشيخ عبد الرازق الرافعى ، كان رئيساً للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعى . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرازق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفى طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه ، وفيها مات ودفن ، وفيها أقام المترجم وإخوته من بعد أبيهم فى بيته ، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً ؛ لا يعرفون لهم وطنا غيرها ولا يبغون عنها حولاً . ولقد حاولت وزارة الحقانية أكثر من مرة أن تنقله إلى غير طنطا ، فكان يسعى سعيه لإلغاء هذا النقل ، حتى لا يفارق البلد الذى فيه رفات أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوى[1]

وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة فى الدين وشدة فى الحق ، ما برح يذكرها معاصروه من شيوخ طنطا .

---

(١) كان للرافعى صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة ، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية كثيرة ، وكان الرافعى إذا أم مسجد السيد البدوى للصلاة اتخذ مجلسه تحت (القبة) فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وعيناه مسبلتان ؛ فاذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح بيده على صدره ، ثم يمضى وما تزال شفتاه تتحركان بكلام ... وكان بيت آل الرافعى القديم فى طنطا قريبا من مسجد السيد البدوى ، فى حارة سيدى سالم ، وهى حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوى أوى إليها أول ما هبط إلى طنطا منذ ألف سنة وكانت إلى عهد قريب هي مجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوي واللائذين به

حدثني نسيب قال : « كنت غلاماً حدثاً ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعي من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً في متجر جاره وصديقه المرحوم حسن بدوي الفطاطري ، في شارع درب الأثر ، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ ففي عصر يوم من رمضان ، كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمر به رجل ينفث الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعى الشرطي أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره في رمضان في شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاعة الشفاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم في (زفة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ حده بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضي المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام » .

وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعي) معروف في تاريخ الفقه الإسلامي منذ قرون ، وأحسب أن هنالك صلةً ما بين أسرة الرافعي في طرابلس الشام وبين الإمام الرافعي المشهور صاحب الشافعي ؛ وقد سألت الرافعي مرة عن هذه الصلة ، فقال : « لا أدري ، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول من عرف منا بهذا الاسم شيخ من آبائي كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر في مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبيهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمود الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم . »

والأستاذ الرافعي حنفي المذهب كسائر أسرته ، ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يعتد به ويأخذ برأيه في كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كأبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخي ما تزال معروفة هناك ، على أنه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة

الرافعى ، وكانت إقامته فى (بهتيم) من قرى مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها ولد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى يناير من سنة ١٨٨٠ م [1] ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى دار أبيها .

وكانت أم الرافعى تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس ، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا .

---

(١) لا نعرف للرافعى (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد التى علف خدمته فى وزارة الحقانية هى لأخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وقد كنت أحسب مولده فى سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، ثم وقعت لى بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يثبت فيها أن تاريخ ميلاده فى يناير سنة ١٨٨٠ فبها أخذت هنا .

obeikandl.com

علمه وثقافته

لأسرة الرافعي ثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشىء منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين ، وتجعل منه خلفاً لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه . والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[1]

وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين ، وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيراً من أخبار السلف ، فلم يدخل المدرسة إلا بعد ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقضى سنة فى مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية ، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل ؛

ومن أساتذته فى المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدى خليل المفتش بوزارة المعارف ، وكان يدرس له العربية ؛ وكان الرافعي رديء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة، فكان الأستاذ مهدى يسخر منه قائلاً: «يامصطفى، لا أحسب أحداً غيرى وغير الله يقرأ خطك ! » وقد ظل خط الرافعي رديئاً إلى آخر أيامه .

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء الرافعي وتكشف عن شيء من خلقه : فقد صحبنى مرة منذ عامين إلى نادى دار العلوم — وما أكثر ما كان

---

(١) كان الرافعي يتخذ فى بيته امرأة قارئة حافظة ؛ تقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن فى وقت فراغهن من المدرسة ، وتقيم ألسنتهن فى تلاوته .

يصحبنى إليه إذا هبط القاهرة — وجلس وجلست معه فى جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفق نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعى يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للرافعى حديث محدثه فى ورقة ، وإنا لكذلك والحديث يتشعب شعبه وينسرب فى مساربه ، والجمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعى واقفاً ، فانتبهت ، فاذا القادم الأستاذ مهدى خليل ، يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الرافعى يطأطئ له وينحنى يهم أن يقبل يده ؛ ثم عاد إلى مجلسه فمال على يقول فى همس : « هذا أستاذى مهدى خليل . . . » وكان فى صوته رنة هى أقرب إلى صوت الطفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يسر إليه . . . ومضى الأستاذ مهدى غير عابئ ولا ملتفت ؛ بما فيه من طبيعة المرح وعادة الإغضاء ، وأحسبه لم يعن بالسؤال عن هذا الزائر الذى نهض له ، أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعى طول اليوم

* * *

وفى السنة التى نال فيها الرافعى الشهادة الابتدائية — وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية — أصابه مرض مشف أثبته فى فراشه أشهراً — وأحسبه كان التيفويد — فما نجا منه إلا وقد ترك فى أعصابه أثراً كان حبسة فى صوته ووقراً فى أذنيه من بعد .

وأحس الرافعى آثار هذا الداء يوقر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى يلتمس العلاج لنفسه فى كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولكن العلة كانت فى أعصابه فما أجدى العلاج عليه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل فى مسمعيه عاماً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يبعد ... حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ، ثم تبعتها الأخرى فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئاً مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فعقد عقدة فى حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على

الكلام ، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام فى وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ظلت فى حلقه حبسة تجعل فى صوته رنيناً أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة ...

وكانت بوادر هذه العلة التى أصابت أذنيه هى السبب الذى قطعه عن التعليم فى المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التى أنشأها لنفسه وأعد براجها بنفسه ، وكان هو فيها المعلم والتلميذ .

وحظ الرافعى من الشهادات العلمية مثل حظ أبيه ، فان الشيخ عبد الرازق الرافعى على علمه وفضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية فى كثير من الأقاليم — لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف علمى بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ، فتقدم إلى امتحانها ونالها ، لغير غرض يسعى إليه إلا أن يستكمل براهينه فى جدال بعض العلماء ...

وكان لأبى الرافعى مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نوادر كتب الفقه والدين والعربية ؛ فأكب عليها إكباب النهم على الطعام الذى يشتهيه ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . . . وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة فى مجالسة أحد . . . وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه ... وكان يحس فى نفسه نقصاً فى ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال فى ناحية ... وكان يعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث ... وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا فى دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة فى قراءة أخبار الناس . وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث ... وقال لنفسه : إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى فليسمعوا منى ...

وبذلك اجتمعت للرافعى كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى

النحيل الضاوى الجسد الذى هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديب العربية فى غد ... !

كانت مكتبة الرافعى فى هذه الحقبة من تاريخه ، هى دنياه التى يعيش فيها : ناسها ناسه ، وجوها جوه ، وأهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رواته ، وأدباؤها سماره ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فماً لفم ، فنشأ بذلك نشأة السلف . يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفه أفراحهم ، وتتراءى له أحلامهم ومناهم .

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلاً لغشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم — فان حظه من العامية المصرية كان قليلاً ، وكان عليه أن يسألنى أحياناً أو يسأل غيرى من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يسمع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شىء من ذلك ، وكان يمزح معى أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لى قاموس العامية ... » .

وإذ كان أبوه وأمه قريبى عهد بمنبتهما فى سورية ، وكان لم يسمع أكثر ما سمع فى طفولته إلا منهما — فان لهجته فى الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سورى ، ولكنه كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النميمة على هذا الأصل ، وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم تجد على الرافعى معرفته الفرنسية[1] إلا قليلاً أو أقل من القليل ، فمنذ انتهى من المدرسة لم يجد فى نفسه إليها نزوعاً قوياً ، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار فى العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء ؛ على أنه كان يأسف أحياناً على هجرها ويمنى نفسه بالعودة إليها فى وقت فراغ ؛ وهيهات أن يجد الرافعى فراغاً من وقته .

---

(١) كانت اللغة الأجنبية فى مدارس الحكومة إلى ما بعد الاحتلال بقليل هي الفرنسية ، ولم تدخلها الانجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم ، وما تزال !

هذه ثقافة الرافعي وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل على هذا الدأب فى القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه ، كأنه من التعليم فى أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية .

وكان إذا زاره زائر فى مكتبه جلس قليلاً يحييه ويستمع لما يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه : « تعال نقرأ ... » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى فى عينى محدثه معنى ليس منه أن يستمر فى القراءة ...

وفى القهوة ، وفى القطار ، وفى الديوان ، لا تجد الرافعي وحده إلا وفى يده كتاب . وكان فى أول عهده بالوظيفة كاتباً بمحكمة طلخا ، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه فى الذهاب وفى الإياب (ملازم) من كتاب أى كتاب ليقرأها فى الطريق . وفى القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة فى خطب الإمام على ، وكان لم يبلغ العشرين بعد ...

في الوظيفة

فى أبريل سنة ١٨٩٩ عين الرافعى كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، بمرتب شهرى أربعة جنيهات ، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه فى المحاكم الشرعية ؛ وما كان الرافعى ليجهل جاه أبيه وأسرته فى هذه المحاكم ، وما كان منكوراً لديه أن لهم يداً على كل قاض فى القضاء الشرعى ؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال فى وظيفته ، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عمل أو لم يعمل ، لمكانة أسرته من النفوذ والرأى ، ولمكانته هو أيضاً ... ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة ؟ ... هكذا كان يرى نفسه من أول يوم ، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم ...

وكانت إقامته بطنطا فى هذه الحقبة ؛ فمنها مغداه وإليها مراحه فى كل يوم ، يتأبط حقيبة فيها غداؤه وفيها كتابه ، وما كان أحد ليستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن جاء فى الضحى ، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله .

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يعينه على العيش ، ليفرغ لنفسه ويعدها لما تهيأت له ، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً ، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته .

وقضى الرافعى فى طلخا زمناً ما ، ثم نقل إلى محكمة إيتاى البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا ؛ وفى طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين ، لأنه رأى المجال فى المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعمل فيها أيسر جهداً وأكثر أجراً ؛ وظل فى محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير .

وحياة الرافعى فى طلخا وإيتاى البارود وطنطا لا تخلو من طرائف ، وتاريخه فى الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التى كان لها أثرها من بعد فى حياته الأدبية ؛ ففى طلخا عرف الكاظمى شاعر العراق الكبير واتصل به وانعقدت بينهما أواصر الود على ما سيأتى تفصيله ؛ وفى إيتاى البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته ، وعلى (جسر كفر الزيات) فيما بين إيتاى البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون (شاعر الحسن) من بعد ؛ وفى طنطا كان نضجه وتمامه وإيناع ثمره .

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعى فى تلك الأيام البعيدة ، ولا كيف كانت صلته بالناس ؛ ولكنى أعرف أن روحا رفافة كانت تطيف به فى تلك الأيام فتنتزعه من وجوده الذى يعيش فيه لتحلق به فى أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها ، فتوحى إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والإحساس بالوحدة ، فلا يجد متنفساً ينفس به عن نفسه غير الشعر ، وكان ذلك أول أمره فى الأدب ، وإليه كان آخر ما يمتد أمله ، فما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً ، شاعراً وحسب .

* * *

وعرف حبيبته الأولى (عصفورة) فتعلم الحب ، ولكنه لم يتعلمه مما يسمع فى مجالس الشبان ، كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب المنى التى يتداولونها فى مجالسهم فيتعلمون الحب منها فنا له قواعد مرسومة وغاية محتومة ... لكنه استمع إلى وحى الحب أول ما استمع فى همسات روحه ، وخلجات وجدانه ، وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه ؛ إلى ما كان للحب فى نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذريين من شباب العرب ؛ فأحس كأن شيئاً ينقصه فراح يفتقده ، وشعر كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه فى خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول : ها أنا ذى ... فهام بالحسن ينشده شعره وينشد فيه مثاله الذى يدور عليه ، وطار على وجهه كالفراشة الحائمة تقول لكل زهرة : أأنت

التى ... فلا يستمع إلى جواب ، والصوت البعيد دائب يهتف فى أذنيه : إننى هنا ، إننى هنا يا حبيبى فاقصد إلى ...

لم يكن يحب إنسانة بعينها يناديها باسمها ويعرفها بصفتها ، بل كانت محبوبته شيئاً فى نفسه وصورةً من صنع أحلامه ، يرى فى كل وجه فاتنٍ لمحةً من جمالها ، وفى كل طلعة مشرقة بريقاً من فتنتها ، وفى كل نظرة أو ابتسامة معنى من معانى الحبيبة النائمة فى قلبه وفى أمانيه ... فمضى يتنقل من زهرة إلى زهرة ، عفيف النظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر ...

لم ينس الرافعى إلى آخر أيامه ما كان من شأنه وشأن قلبه فى صدر حياته ، فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رفت به سانحة من سوانح الماضى تذكره ما كان من أمره وما آل إليه أمره .

ليس قصدى الآن أن أتحدث عن الحب فى تاريخ الرافعى ، فان للحب فى تاريخه فصلاً ضافى الذيول كثير الألوان متعدد الصور له مكانه المفرد فى غير هذا الباب . ولكنى أتحدث عن الرافعى فى بكرة الشباب ، فما لى مندوحة عن الإلمام بما كان يصطرع فى نفس الرافعى فى بكرة الشباب .

* * *

عاش الرافعى لفنه ولنفسه من أول يوم ، فما عاقته الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون ؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يكمله ، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيده أغلال النظام الحكومى — كان إلى ذلك دقيقاً فى عمله الرسمى دقة تبلغ الغاية . وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شىء مما يسند إليه ، حتى آل أمره إلى أن يكون المرجع فى هذا العمل لكتاب المحكمة جميعاً يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمر فى تقدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتاب المحاكم فى مختلف البلاد ، ثم لوزارة الحقانية نفسها وهى المرجع الأخير ، تكتب إليه فى زاوية مكتبه من محكمة طنطا تسأله الرأى فى حسبة أو إشكال أو شىء مما يتصل

بذلك ، فيكتب إليها بالرأى لتبلغه فى منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .

وكان عليه كل العبء من هذه الناحية فى محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من مرة أن (يحال إلى المعاش) ليتفرغ لفته ، فما كان يمنعه من المضى فى طلبه إلا رجاء موظفى المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه .

وكان فى صلته بموظفى المحكمة الذين يشركونه فى عمله نبيلاً كريم الخلق إلى حد بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأيته مرة فى صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشى الحقانية ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ فى تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص فى الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيهاً ؛ والرافعى يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأي ويصف العلاج ، والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصى وما ضاقت به أخلاق الرافعى ؛ على حين لم يكن على الرافعى فى هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ، وما كانت إلا من أخطاء زملائه فى المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يتعرضوا لشر هو أقدر منهم على الخلاص منه .

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يجحد منزلته أو ينال منه أى نيل ؛ وكان يفرط فى ذلك إفراطاً يدعو إلى الشك أحياناً فى تواضع الرافعى وكرم خلقه وحسن تصرفه .

من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدي عمله فى المحكمة — وعمله أن يحقق أخطاء الرافعى — كان الرافعى يلزم المفتش أحياناً أن يحضر هو نفسه إلى مكتبه فى حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش واقف أو جالس على كرسيه إلى الطرف الثانى من المكتب . وكنت إحدى هذه المرات جالساً إلى جانب الرافعى — وكان يستدنينى إليه ويشركنى فى عمله حين أذهب لزيارته فى الديوان — فلما جاء المفتش هممت بالانصراف ، فشد الرافعى ذراعى بعنف وهو يقول : « اجلس يا أخى ... » ووجه إليه المفتش سؤالاً ، فالتفت الرافعى إلى قائلاً :

« من فضلك ، قول عنى جوابه فانه فى حاجة إلى معلم مثلك ! »

لم يكن اعتداد الرافعى بنفسه يبلغ به مثل هذا الشذوذ فى كل أحواله ، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته ، لأسباب يأتى تفصيلها .

وكان من تقاليد المحكمة كلما نقل إليها قاض أو نائب جديد ، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهنئونه ويتمنون له ؛ ولكن الرافعى كان يتخلف عن وفد الموظفين ، ويظل وحده فى مكتبه ؛ فاذا فرغ القاضى أو النائب من استقبالهم ، مضى إلى مكتب الرافعى فى حجرته ، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا الاتفاق الذي هيأ لهما هذا التعارف ... ثم يذهب إليه الرافعى بعد ذلك فى مكتبه ليشكر له ويكرر التهنئة .

حتى مدير المديرية — ومحكمة طنطا هى جزء من ديوان المديرية — لم تكن صلته بالرافعى صلة المدير الحاكم بموظف صغير ، فكانت بين الرافعى وكثير من المديرين صلات من الود والصداقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين ؛ ولكن منهم رجلاً واحداً كان أقرب قرابة إلى الرافعى من أهله ومن خاصته ومن تلامذته ... ، هو المرحوم (محمد محب باشا) أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية ؛ وكان للصلة بين الرافعى ومحب باشا أثر كبير فى أدبه سنتحدث عنه فيما بعد .

لم يكن للرافعى ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره ، فأحياناً كان يذهب فى التاسعة أو فى العاشرة ، أو فيما بين ذلك ، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذى يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته ، فيجلس فى هذا المتجر وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود الى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل فى غيبته ، وقد لا يعود ... .

وكان هذا منه يغضب زملاءه فى العمل ، فكانوا يتفسون عليه ويأكلون لحمه ؛ ويبلغه ما يتحدثون به فيهز كتفيه ويسكت ، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بيدهم عند الأزمة ؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح فى المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة ... !

وحدث مرة أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول ، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة ، لم يجد بينهم الرافعى ، فلما سأل عنه تحدث الموظفون فى شأنه ما تحدثوا ؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوه إليه ، فلم يجده الرسول فى مكتبه ، فغضب الرئيس وثارت ثائرته ، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمى ؛ وجاء الرافعى فبلغه ما كان ، فهز منكبه وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث على عادته كأن لم يحدث شىء ؛ ورفع الرئيس كتاباً إلى وزارة الحقانية يبلغها أن فى محكمة طنطا كاتباً أطرش ، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح على شدة اتصال عمله بالجمهور ، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأى ... وطلب الرئيس فى آخر كتابه إقالة الرافعى من الخدمة !

وأرسلت وزارة الحقانية مفتشها لتحقيق هذه الشكوى ، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا ؛ وكان المفتش المندوب لذلك هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفنى ناصف بك . ولم تكن بين الرافعى وحفنى ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب البعيد الذى يجمع بينهما فى أسرة أبولون ... وإلا ... وإلا كلمة قاسية كان الرافعى كتبها بأسلوبه اللاذع عن (شعراء العصر) فى سنة ١٩٠٥ ، ونشرها فى مجلة الثريا وجعل فيها حفنى ناصف ذيل الشعراء ...

وجاء حفنى ناصف إلى الرافعى فحيا وجلس ، وبسط أوراقه ليحقق ... وقال الرافعى : « قل لهم فى الوزارة : إن كانت وظيفتى هنا للعمل ، فليؤاخذونى بالتقصير والخطأ فيما يسند إلى من عمل ؛ وإن كانت الوظيفة : تعال فى الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسى كأنك مشدود إليه بحبل حتى يحين موعد الانصراف ؛ فلا على إن تمردت على هذا التعبد . . . قل لهم فى الوزارة : إنكم لا تملكون من الرافعى إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهار ... ! »

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى أوراقه وحيا صاحبه ومضى ؛ فلما كان فى خلوته ، كتب تقريره إلى وزارة الحقانية يقول :

إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود . . .

إن للرافعى حقاً على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية ... إن فيه قناعة ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهى أن يعيش ، واتركوه يعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء أن يبدع ، وإلا فاكفلوا له العيش الرخى فى غير هذا المكان .. !

وبلغ التقرير وزارة الحقانية ، وانطوت القضية ، وصار تقليداً من تقاليد المحكمة من بعد أن يغدو الرافعى ويروح لا سلطان لأحد عليه ، وله الخيرة فى أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل فى واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه فى موضعه ذلك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافعى لم تكن بينه وبين حفنى ناصف صلة ما . ولكن حفنى تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين فى محكمة طنطا فتقاربا وتوثقت بينهما أواصر الود ؛ وكانت طنطا فى ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب ؛ فلا يمضى أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفنى والرافعى ، فيقوم للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافعى وحفنى من التقارب فى الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود ؛ فكلاهما شاعر ، وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة البكر ، وإن كانت فكاهة حفنى أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ القلب ، وفكاهة الرافعى أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس . ولعل روح الفكاهة فى الرافعى كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم بك من صلة الود والإخاء .

حدثنى الأستاذ الأديب جورج ابراهيم — صديق الرافعى وصفيه منذ حداثته — قال : لقد كانت الصلة بين الرافعى وحفنى أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا يتزاوران كثيراً ، أو يجتمعان فى قهوة (اللوفر) بميدان الساعة ، وكنت أغشى مجلسهما أحياناً ... فكنت أرى حفنى يتواضع للرافعى ويتصاغر فى مجلسه ، على مقدار ما يتشامخ الرافعى ويتكبر ويدعى الأستاذية ، حتى ليرى له الرأى فى القضايا التى لم يدرسها حفنى بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعى !

ظل الرافعى فى وظيفته تلك ، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الأدبية ، وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على المورد المحدود والبساط الممدود ... وما زاد مرتب الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الذائع الصيت فى الشرق والغرب ، الموظف الصغير فى محكمة طنطا الكلية الأهلية ، على بضعة وعشرين جنيهاً فى الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة فى وظائف الحكومة ...

على أن الرافعى كان له مرتب آخر من عمله فى المحكمة ، هو ثمن ما كان يبيع من كتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه فى مكتبه لعمل رسمى ؛ فمن كان منهم يريد أن يظفر برضا الرافعى ليقضى له حاجته ، فليشتر كتاباً من كتبه . وكانت ضريبة فرضها الرافعى من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس !

ليت شعرى ! أكان على الرافعى ملام أو معتبة أن يفعل ذاك ... ؟

الله للأدباء فى هذه الأمة التى لا تحفظ الجميل !